

الحلقة التاسعة والثلاثون

مواضيع عملية

برنامج أنوار كاشفة

نرحب بك مستمعي العزيز في هذا اللقاء الجديد من برنامج أنوار كاشفة. عندما ترتكب خطأ ما، أو تتصرف تصرفا غير مقبول هل تتدم على ما فعلت ويؤنبك ضميرك؟ أم تتجاهل الأمر وكأن شيئا لم يكن.

في قصة مكبث للأديب الإنكليزي المشهور شكسبير، نجد أن الليدي أو السيدة مكبث، وقد سمعت نبوءة أن زوجها سيصبح ملكا، أفنعت زوجها لكي يغتال الملك الحاكم آنذاك. وعندما اغتال زوجها مكبث الملك، ورآه مضرجا بالدماء أخذ ضميره يوبّخه. لكن زوجته السيدة مكبث أنبته لأنه أخذ يلوم نفسه على جريمته التي فعل. وكان أن نصّب مكبث ملكا.

وبعد مدة أخذت تظهر علامات غير مطمئنة على السيدة مكبث، وأصبحت تتصرف تصرفات غير متزنة، إذ لم تعد تتوقف عن غسل يديها، ومرات عديدة في اليوم. أي تحاول غسل يديها من جريمة دم الملك الذي حرّضت زوجها على قتله. وكانت السيدة مكبث تسأل نفسها باستمرار: هل من الممكن أن تصبح يديّ نظيفتين؟ أما النتيجة فكانت أن قاد هذا الشعور بالذنب السيدة مكبث إلى الانتحار.

صديقي المستمع، إذا كانت هذه القصة هي من تأليف شكسبير، فإن كلمة الله المقدسة في العهد الجديد تخبرنا عن حادثة واقعية حصلت تؤكد ما يجره تأنيب الضمير على الإنسان من عواقب وخيمة. فلقد كان يهوذا الإسخريوطي أحد تلاميذ المسيح أو حواريه الإثني عشر، لا بل كان أميناً للصندوق. وعندما علم يهوذا أن رؤساء الكهنة اليهود يتحينون الفرص لكي يقبضوا على المسيح، ذهب إليهم وقال ماذا تريدون أن تعطوني وأنا أسلمكم المسيح؟ فقررُوا أن يدفعوا له ثلاثين من الفضة.

وفي أول أيام الفطير وهي احتفالات خاصة بذكرى خروج بني إسرائيل من مصر، وبينما كان المخلص المسيح يأكل الفصح مع تلاميذه قال لهم: "الحق أقول لكم إن واحداً منكم يسلمني. فحزنوا جدا وابتدأ كل واحد منهم يقول له: هل أنا يا رب؟" فأجاب المسيح وقال لهم: الذي يغمس يده معي في الصّحفة هو يسلمني. إن ابن الإنسان ماض كما هو مكتوب عنه. ولكن ويل لذلك الرجل الذي به يسلم ابن الإنسان. كان خيرا لذلك الرجل لو لم يولد. فأجاب يهوذا مسلّمه وقال: هل أنا هو يا سيدي؟ فقال له المسيح: أنت قلت. وأضاف المسيح قائلاً له: ما أنت تعمله فاعمله بأكثر سرعة. ولم يفهم التلاميذ الآخرون ما قصده المسيح بهذا

الكلام، وعندها خرج يهوذا. وفي تلك الليلة وبينما كان المسيح مع تلاميذه في بستان جثسيماني، إذا بيهوذا يأتي ومعه جمع كثير بسيفوف وعصي من عند رؤساء الكهنة اليهود.

واقترب يهوذا من المسيح قائلاً: السلام يا سيدي، وقبله، فقال له المسيح: يا يهوذا أبقلة تسلّم ابن الإنسان؟ وكان يهوذا قد أعطى علامة قائلاً: الذي أقبلة هو هو. أمسكوه وامضوا به بحرص. عندئذ ألقوا القبض على المسيح، ومضوا به إلى رئيس الكهنة. وبعد أن أوثق رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب المخلص المسيح وأسلموه للوالي الروماني بيلاطس، ندم يهوذا الإسخريوطي على خيانتته وتسليمه للمسيح إليهم، وردّ الثلاثين من الفضة إلى رؤساء الكهنة قائلاً: قد أخطأت إذ سلّمت دماً بريئاً. فطرح الفضة في الهيكل . ثم مضى وخنق نفسه.

كانت هذه حادثة واقعية تؤكد لنا أثر عذاب وتأنيب الضمير على الإنسان. وأن كل إنسان مهما كان شريراً وفساداً لا بد أن يؤنّب ضميره. وهاهو الأديب الإنكليزي شكسبير قد عبر عن ذلك بقصة السيدة مكبث، التي لم تستطع أن تُسكت ضميرها فكانت النتيجة أنها انتحرت.

مستمعي الكريم، بالطبع ليس كل من يؤنّب ضميره ينتحر. لكن هل تعلم يا صديقي أن الله قد وضع الضمير في كل إنسان؟ ولهذا كتب سليمان الحكيم قديماً قائلاً: "نفس الإنسان سراج الرب. يفتّش كل مخادع البطن." (أمثال ٢٠: ٢٧) وبتعبير آخر إن الضمير هو السراج الذي وضعه الله في الإنسان. والذي يكشف له خطاياهم وشروهم أمام عينيه. لا بل أن الرسول بولس كتب بما معناه: أن الناس الذين ليس عندهم ناموس الله أو شريعته، فإن ضمائرهم هي التي تكشف خطاياهم وتحتج لهم عليها. (رومية ١٥: ٢)

ماذا تفعل يا صديقي عندما يؤنّبك ضميرك على عمل ما؟ هل تتدم وتعتزف بذنبك وتطلب المغفرة من الله؟ أم أن ضميرك أصبح شبه ميت، ولم يعد للضمير أي أثر على سلوكك؟ هل تعلم يا صديقي أن كلمة الله قد حذرتنا من أن نسكت ضمائرنا ونعطل عملها؟

هناك قصة واقعية أخبرتنا بها كلمة الله. فلقد أخطأ النبي داود والملك خطيئة شنيعة، بأن دبّر قتل أوريا الحثي وزنا مع امرأته، ثم أخذها زوجة له. فأرسل الله إليه النبي ناتان، الذي كشف له عظم جريمته، وعقاب الله الكبير له، بأن لا يفارق السيف بيته. فما كان من داود إلا أن اعترف بذنبه العظيم، وصلّى هذه الصلاة المشهورة والمدوّنة في المزمور الحادي والخمسين قائلا:

"ارحمني يا الله حسب رحمتك. حسب كثرة رأفتك امح معاصي. اغسلني كثيرا من إثمي ومن خطيئي طهرني. لأنني عارف بمعاصي وخطيئي أمامي دائما. إليك وحدك أخطأت والشر قدام عينيك صنعت لكي تتبرر في أقوالك وتزكو في قضائك. هأنذا بالإثم صوت وبالخطية حبلت بي أمي.. طهرني بالزّوفا فأطهر. اغسلني فأبيض أكثر من الثلج... استر وجهك عن خطاياي وامح كل آثامي." (مزامير ٥١: ١-٥، ٧-٩) لقد اعترف داود بخطيئته وتاب عنها، فقبل الله توبته. وهو الذي كتب في مزمور آخر قائلا: "طوبى للذي غُفر إثمه وسترت خطيئته. طوبى لرجل لا يحسب له الرب خطية ولا في روحه غش." (مزمور ٣٢: ١ و٢)

هل تعلم يا صديقي أن الله مستعد اليوم لكي يغفر خطايا أي إنسان ومهما كانت عظيمة، يقبل إليه تائباً؟ لقد أرسل الله المخلص المسيح لهذا الغرض بالذات، لكي يغفر خطايانا ويريح ضمائرنا التي تؤنبنا وترجعنا. لقد مات المسيح عوضاً عنا على الصليب. أخذنا عقاب خطايانا نحن. فهل تؤمن وتتق به يا صديقي؟ وعندئذ لا يغفر الله خطاياك فحسب بل يريح ضميرك أيضا وإلى الأبد.